دراسة حول كتاب التاريخ الباهر في دولة الأتابكة وتقنيات الكتابة التاريخية عند ابن الأثير

A study on the book The Brilliant History of the Atabeg State and Ibn al-Atheer's historical writing techniques

ا.د.عباس قديمي قيداري

Supervisor Professor Abbas Qadimi Gedari

ايران / جلمعة تبريز / كلية حقوق وعلوم اجتماعي / قسم التاريخ

Iran/Jalamat Tabriz/Faculty of Law and Social Sciences/Department of History

ghadimi.history@gmail.com

م. م اسيل صادق حنون

aseelalhassani38@gmail.com

الكلمات المفتاحية: ابن الأثير، كتاب التاريخ الباهر، دولة الزنكيين، بنية الكتاب، السمات المنهجية والأدبية

Keywords: Ibn al-Athir, Al-Tarikh al-Bahir, Zengid State, Book Structure, Methodological and Literary Characteristics

الملخص

يتناول هذا المقال دراسة نقدية لكتاب "التاريخ الباهر في دولة الأتابكة" لعز الدين ابن الأثير الجزري، بصفته واحداً من أبرز المؤرخين المسلمين في القرن السادس الهجري. يُعد ابن الأثير مؤلفاً لثلاثة أعمال شهيرة في مجالات التراجم والأنساب والتاريخ، وهي: "اللباب في تهذيب الأنساب"، و"أسد الغابة في معرفة الصحابة"، و"الكامل في التاريخ"، ويُعرف كل منها باعتباره مرجعاً ومصدراً أصلياً. ويُعتبر كتاب "التاريخ الباهر في دولة الأتابكة" من أهم المصادر التاريخية المتعلقة بدولة الزنكيين ودورهم المحوري في التصدي للتقدم الصليبي. لا يقتصر هذا العمل على تسجيل الوقائع التاريخية لتلك الفترة فحسب، بل يُطرح أيضاً كنموذج لصناع السياسة. اعتماداً على تجاربه مع الحروب الصليبية والأحداث السياسية في عصره، يقدم ابن الأثير تفسيراً للجهاد الإسلامي والتحولات الاجتماعية والسياسية آنذاك، ويقدم من خلال هذا الكتاب، بتوظيفه لمصادر متعددة ورواياته ومشاهداته ومسموعاته، صورةً لعصر حكم الزنكيين وللحياة السياسية والاجتماعية والثقافية في الموصل. وإلى جانب تعريفه بكتاب "التاريخ الباهر"، يستعرض هذا المقال أيضاً أساليب الكتابة لدى ابن الأثير وتوظيفه للأدوات الأدبية والبلاغية في تأليف هذا الكتاب.

Abstract

This article presents a critical study of the book "Al-Tarikh al-Bahir fi Dawlat al-Atabaka" by Izz al-Din Ibn al-Athir al-Jazari, as one of the most prominent Muslim historians of the sixth century AH. Ibn al-Athir is the author of three famous works in the fields of biographies, genealogy, and history: "Al-Lubab fi Tahdhib al-Ansab", "Usd al-Ghabah fi Ma'rifat al-Sahabah", and "Al-Kamil fi al-Tarikh", each of which is recognized as a primary reference and source. The book "Al-Tarikh al-Bahir fi Dawlat al-Atabaka" is considered one of the most important historical sources concerning the Zengid state and its pivotal role in countering the Crusader advance. This work not only records the historical events of that period but also serves as a model for policymakers. Drawing on his experiences with the Crusades and the political events of his time, Ibn al-Athir provides an interpretation of Islamic jihad and the contemporary social and political transformations. Through this book, employing multiple sources, his own narrations, observations, and hearsay, he presents a picture of the Zengid era and the political, social, and cultural life of Mosul. In addition to introducing the book "Al-Tarikh al-Bahir", this article also examines Ibn al-Athir's writing techniques and his use of literary and rhetorical devices in composing this book.

المقدمة

في مطلع القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي، أثرت التحولات السياسية والعسكرية في العالم الإسلامي، ولا سيما في نطاق الخلافتين العباسية والفاطمية، تأثيراً كبيراً في الكتابة التاريخية لهذه الفترة. ففي ذلك الوقت، كانت الخلافتان المذكورتان قد تحولتا فعلياً إلى قوى اسمية، بينما كانت السلطة الحقيقية بيد الدولة السلجوقية التي امتدت من ما وراء النهر في الشرق حتى حدود الإمبراطورية البيزنطية والخلافة الفاطمية في الغرب.

وفي هذا السياق التاريخي، يُعد ظهور أتابكة الموصل بقيادة عماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود بمثابة نقطة تحول في التأريخ الإسلامي. فقد أدى هذان الحاكمان، بجهودهما الواسعة في الجهاد ضد الصليبيين، دوراً أساسياً في الحفاظ على السيادة الإسلامية وتوسيعها. تناولت الأبحاث السابقة في مجال التأريخ الإسلامي، وخصوصاً في القرن السادس الهجري، أعمال مؤرخين مختلفين مثل ابن قلانسي وابن عساكر وابن العديم وابن الأثير، وحللتها. بيد أن الدراسات المتعلقة بتاريخ التأريخ الإسلامي قد أولت اهتماماً أقل لتحليل كتاب آخر لابن الأثير، وهو "التاريخ الباهر".

فابن الأثير، بصفته مؤرخاً مجرباً، وبالنظر إلى وضعه الأسري والاجتماعي، تمكن من توثيق التحولات السياسية والعسكرية في هذا العصر توثيقاً جيداً، وقدم معلومات قيمة، لا سيما عن الحروب الصليبية. وتتمثل القضية الرئيسية لهذا البحث في مكانة كتاب "التاريخ الباهر"، ودور ابن الأثير كمؤرخ للدولة الزنكية، وتحليل مناهجه ومصادره في كتابة "التاريخ الباهر"، والعلاقات بين أسرة الزنكيين والدول الأخرى، والآثار السياسية والاجتماعية لهذه العلاقات على كتابة التاريخ في هذه الفترة.

في مطلع القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي، وبوفاة ملكشاه السلجوقي، تفكك تماسك الدولة السلجوقية، وظهرت في الشام عدة دول سلجوقية صغيرة. وفي هذا السياق، برز عماد الدين زنكي كمؤسس لدولة أتابكة الموصل، وبعده رسخ ابنه نور الدين محمود هذه الدولة. وقام هذان الحاكمان بجهود واسعة في الجهاد ضد الصليبيين، وأعدا الأرضية للتوحيد السياسي والعسكري للمسلمين.

من ناحية أخرى، تحولت مصر الفاطمية، بسبب ضعفها الداخلي وتنافس وزرائها، إلى ساحة صراع على السلطة. وقد أدت هذه التحولات السياسية والعسكرية، إلى جانب حركة الجهاد الإسلامي، إلى ازدهار التأريخ في العراق والشام ومصر. ونتيجة لذلك، ظهرت أعمال عن سير الحكام وتاريخ الدول وفضائل المدن، مما يشير إلى ازدهار التأريخ في هذه الفترة.

يُعد القرنان السادس والسابع الهجريان، ولا سيما النصف الثاني من القرن السادس، من أكثر الفترات ازدهاراً في مجال التأريخ الإسلامي. ففي المرحلة الأولى من الهجوم الصليبي، لم تُكتب أعمال تاريخية كثيرة، لكن في المراحل المتقدمة، ونتيجة شدة التهديد والتحولات السياسية، أخذ المؤرخون في تسجيل هذه الأحداث وتحليلها.

وفي هذا الإطار، يحتل عز الدين ابن الأثير الجزري مكانة بارزة في التأريخ الإسلامي. وُلد ابن الأثير (555–630 هـ) في جزيرة ابن عمر (شمال العراق الحالي)، وهو مؤرخ إسلامي بارز. نشأ في أسرة علمية، وتخصص في التاريخ والأدب والحديث والفقه. ويُعد كتابه عن الدولة الزنكية، أي "التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية"، من أهم المصادر عن هذه الدولة.

فـ"التاريخ الباهر" هو من المصادر الرئيسية لفهم الدولة الزنكية، ويعكس بصدق جهادهم ضد الصليبيين. عاصر ابن الأثير خمسة خلفاء عباسيين، وكان خلال هذه الفترة شاهداً على أحداث كبرى في العالم الإسلامي أو معاصر لها.

ففي شرق العالم الإسلامي، حدث انقراض الدولة السلجوقية الكبرى، ومن ثم صعود وسقوط سريع لدولة الخوارزمشاهيين إثر الغزوات المغولية، وفي غرب العالم الإسلامي، وقعت الحملات الصليبية، وحروب ومعارك الدول الإسلامية ضد الصليبيين، وبلغت ذروتها في معارك صلاح الدين الأيوبي، وكانت هذه أحداثاً كبرى أثارت اهتمام المجتمع الإسلامي ودهشته.

أمضى ابن الأثير فترات طويلة في بلاد الشام وفلسطين، وشاهد الحروب الصليبية، وكان أحياناً حاضراً في بلاط صلاح الدين الأيوبي ومعسكره. وهكذا، فإن ابن الأثير، كمؤرخ، رأى جزءاً من هذه الأحداث عن كثب، وكان شاهداً على سيرورتها.

وكما ذكرنا، تُعد هذه الفترة من فترات ازدهار التأريخ، حيث كتب مؤرخون إسلاميون مثل ابن قلانسي وابن عساكر تاريخ دمشق، وكتب ابن العديم كتاب "زبدة الحلب" في تاريخ حلب السياسي، وكتب عز الدين بن شداد كتاب "الأعلاق الخطيرة" في وصف جغرافية شمال الشام. وكان انتشار التواريخ المحلية وكتب التراجم في هذه الفترة نتيجة لانهيار الوحدة السياسية للخلافة العباسية وظهور دول إقليمية متعددة.

يمكن دراسة كتاب "التاريخ الباهر" لابن الأثير وتحليله أيضاً في هذا السياق والإطار. خلّف ابن الأثير أربعة كتب في مجالات التراجم والأنساب والتاريخ، وهي: "الكامل في التاريخ"، و"اللباب في تهذيب الأنساب"، و"أسد الغابة في معرفة الصحابة" الذي يُعد من أهم المراجع في أحوال صحابة النبي، وأخيراً كتاب "التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية" (طليمات،١٩٦٩،ص٥٣–٥٤).

من أسماء كتب ابن الأثير يتضح أنه كان مهتماً بالتاريخ وفروعه المختلفة، وكان له اهتمام خاص بالتاريخ العام للإسلام والعالم. يكتب ابن الأثير في مقدمة كتاب "الكامل" أنه كان دائماً محباً لدراسة كتب التاريخ، ومهتماً بالاطلاع على الأحداث الخفية والظاهرة في التاريخ، وبالمعارف والآداب والتجارب التي تنطوي عليها. فلما تأمل فيها، وجد أنها لا تحقق ما يريد ويروم، إما للإطالة غير المفيدة، أو لأن التاريخ المختصر أغفل كثيراً من الأحداث التي وقعت.

وعلى أي حال، لا يوجد في أي تاريخ شرح لجميع الأحداث التي وقعت والتي حدثت. كل مؤرخ دوّن الأحداث حتى زمانه، ثم جاء آخر من بعده وكتب ذيلاً عليه، وأضاف إليه الوقائع الجديدة التي حدثت حتى عصره. "إن التاريخ الشرقي خالٍ من أخبار الغرب، والتاريخ الغربي أغفل أحوال الشرق، فمن يريد دراسة فترة تاريخية واحدة حتى زمانه، يحتاج إلى تواريخ كثيرة وكتب متعددة، وهي تواريخ وكتب يعاني كل منها من نقص وإطالة."

وبهذا الدافع بدأ ابن الأثير كتابة تاريخه الكبير "الكامل" ليشمل جميع أخبار حكام الشرق والغرب والأراضي الواقعة بينهما، وليجمع مواد لم تكن مجموعة في أي كتاب (ابن الاثير ،١٩٨٧،،ج١،ص٥-٧.)

تقديم كتاب التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية (التاريخ الباهر لدولة الأتابكة)

يصنف كتاب "التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية" ضمن فئة التواريخ الأسرية (الدودمانية) في تصنيفات الكتابة التاريخية، ويمكن اعتباره من أبرز التواريخ الأسرية في تقليد التأريخ الإسلامي (نژاد محمدى ،پنجه ورودگر ،١٣٩٨،ص٣٦٣)، لأنه كُتب باللغة العربية.

ابتداءً من القرن السادس الهجري، ازدهر التأريخ الإقليمي في بلاد الشام والعراق، وكان للهجمات الصليبية دور أساسي في هذا الازدهار. لم يكن ابن الأثير أول مؤرخ كتب عن الدولة الزنكية؛ فقد سبقه مؤرخون مثل ابن قلانسي وعماد الدين الكاتب في معالجة تاريخ هذه الدولة، ولحقه بهاء الدين بن شداد وابن واصل فدوّنوا تواريخ عنها (حلمي،١٣٩٤،ص١١٢-١١٨). وتأثرت كتب مثل "الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية" لأبي شامة المقدسي، و"مفرج الكروب في أخبار بني أيوب" لابن واصل، تأثيراً كبيراً بـ"التاريخ الباهر" لابن الأثير.

ومع ذلك، يُعد "التاريخ الباهر" أكمل تاريخ مستقل عن الزنكيين، إذ على خلاف بعض الأعمال التي اقتصرت على بداية الدولة أو فترة معينة فقط، يقدم هذا الكتاب صورة شاملة. فابن الأثير، وإن كان قد أشار في كتابه الكبير "الكامل" إلى تاريخ الزنكيين ورجال دولتهم، إلا أنه زودنا في "التاريخ الباهر" بمعلومات قيمة لم يشر إليها في "الكامل".

على سبيل المثال، يمكن الإشارة إلى رواية ابن الأثير عن فترة مراهقة عماد الدين وشبابه بعد وفاة والده، وخدمته لأمراء الموصل، ومشاركته في سن مبكرة في الحروب التي كانت من أسس

نجاحه العسكري والسياسي لاحقاً، إلى جانب معلومات عن كيفية نجاحه في تأسيس الدولة وسياساته الحازمة خلال فترة حكمه. وفيه موضوعات لم ترد في "الكامل في التاريخ"، وهو لذلك يحظى بقيمة خاصة. ويوضح ابن الأثير في مقدمة الكتاب أن هدفه من التأليف هو حبه لموطنه الموصل، ورغبته في كتابة تاريخ يتعرف من خلاله الملك الشاب عز الدين مسعود بن نور الدين أرسلان شاه الأتابكي الجديد على تاريخ أسرته، ويسترشد بسياساتهم وتنظيماتهم الإدارية (ابن الاثير ،١٩٦٣،ص٢-٣).

وبالتالي، سعى ابن الأثير إلى خلق نموذج أخلاقي وسياسي وإداري للملك الصغير. فمن خلال كتابه "التاريخ الباهر" الذي أهداه إلى الملك عز الدين مسعود الثاني، حاول أن يحفز همته للاقتداء بأسلافه، لأن عز الدين تولى الحكم في سن العاشرة، وكان بدر الدين لؤلؤ يدير شؤون الدولة الفعلية. ومع ذلك، كان عز الدين أشبه بأسلافه في الجوانب الأخلاقية أكثر منه في ميدان السياسة والإدارة، ولم تكن له سلطة مستقلة كبيرة في الأمور السياسية.

هناك خلاف حول أي الكتابين، "الكامل" و"التاريخ الباهر"، قد أُلِّف أولاً. يرى أحمد حلمي، الباحث المصري، أن "الكامل" قد أُلِّف قبل "الباهر"، وأن ابن الأثير لم ينشره إلا بعد سنة 619هـ/1222م، أي بعد أحد عشر عاماً من نشر "الباهر" (حلمي ،١٣٩٤،ص١١٦). لكن بعض الباحثين، مستدلين بأدلة معينة، يرون أن كتابة "الباهر" سبقت تأليف "الكامل" (سالاري شادي،١٣٩٧،ص٣١).

يتناول هذا الكتاب أخبار آل عماد الدين زنكي وأبنائهم، وقد كُتب بأمر من الملك القاهر عز الدين مسعود الثاني حاكم الموصل، ويشمل أحداث الموصل والدولة الزنكية من سنة 477 إلى 607 هجرية. ألّف ابن الأثير "التاريخ الباهر" سنة 607 هـ في سيرة قسيم الدولة آق سنقر حتى حكم مسعود بن نور الدين بن أرسلان شاه في الموصل.

وبما أن آل زنكي نشأوا من داخل السلطة السلجوقية، ولأن موقع وعلاقات الأسرة الزنكية اقتضيا من ابن الأثير الاهتمام بأحوال الحكام المعاصرين من سلاجقة وخلفاء عباسيين وغيرهم (ابن الاثير ١٩٦٣،ص٢٠-٢٢). إلا أن الاهتمام الأكبر لابن الأثير ينصب على حروب آل زنكي مع الصليبيين، ولذلك يُعد كتاب "الباهر" من المصادر المهمة للمعارك الأولى والثانية لحروب الدولة الزنكية ضد الصليبيين.

على الرغم من أنه يرى طليمات أن ابن الأثير لم يَمِلْ إلى ذكر العلاقات والأحداث التي وقعت بين سلسلة آل زنكي والأيوبيين، الذين كانوا معاصرين لها في فترة زمنية طويلة (ابن الاثير ،مقدمة طليمات ،ص١٧) .

ويبدو أن تأليف "التاريخ الباهر" بدأ بعد وفاة نور الدين أرسلان شاه الأول وفي عهد عز الدين مسعود الثاني. والنهاية الدقيقة لتأليف الكتاب غير معروفة، لكن آخر الأحداث المسجلة تعود إلى سنة 608 هـ. وتكمن قيمة هذا التاريخ المحلي في المعرفة المباشرة التي امتلكها المؤلف عنه (رضا زاده لنگرودي ،١٣٩٥،ص٧٠٤).

أطلق ابن الأثير على الزنكيين اسم "الأتابكية" نسبة إلى لقب مؤسس هذه السلسلة (أتابك)، وهو اللقب الذي أُطلق على عماد الدين مؤسس هذه الدولة بعد توليه حكم الموصل. ويشير ابن الأثير في مقدمة الكتاب إلى العلاقة الوثيقة بين أسرته وبين ملوك الموصل، ويذكر سبب تأليف هذا الأثر(طليمات ،١٩٦٩،ص٧٨-٧٩).

ويتناول ابن الأثير في كتاب "الباهر" سيرة قسيم الدولة آق سنقر وعماد الدين زنكي وخلفائه، ويشير إلى تأسيس الدولة الزنكية وعلاقاتهم بالعباسيين والسلاجقة (ابن الاثير ،١٩٦٣،ص١٤٣-١٥٤). ويذكر بتفصيل عماد الدين زنكي وسيف الدين غازي ونور الدين محمود، ويسجل جهودهم في الجهاد ضد الصليبيين ويسلط الضوء عليها.

يحتل عماد الدين زنكي ومسيرته الجهادية مكانة بارزة في كتاب "الباهر"، رغم أن وفاته لم تحدث في ميدان المعركة(ابن الاثير ،١٩٦٣،ص٧٤-٧٦). ويتعمد ابن الأثير، تقديراً لجهاده ضد الصليبيين، أن يذكره شهيد(نژاد محمدي،پنجه ورودگري،ص٣٦٧) . كما عُرضت مبارزات نور الدين زنكي مع الصليبيين بنظرة تقديرية (طليمات ،١٩٦٩،ص٨٤-٩١).

ويحظى هذا الكتاب بأهمية كبرى باعتباره أحد المصادر الرئيسية عن الحروب الصليبية، وخاصة المعارك الأولى والثانية. وفي معرض سرده لأخبار ملوك الزنكيين، يشرح ابن الأثير بإيجاز أحداث الموصل في السنوات من 569 إلى 607 هجرية. وإضافة إلى ذلك، دوّن سير بعض كبار رجال الدولة من وزراء وقادة، وأبرز دور بعضهم في تأسيس الدولة وتقدمها، ودور آخرين في إضعافها(ابن الاثير،١٩٦٣،ص٩٤-١١٨، مقدمة طليمات ،ص15-17).

ويختم ابن الأثير أخبار كل ملك من سلسلة الزنكيين بسيرته، وبتفصيل في ذكر إنجازاتهم ومشاريعهم العمرانية والتعليمية في الموصل. ومن هذا المنطلق، يكتسب "التاريخ الباهر" أهمية خاصة، لأنه يقدم معلومات قيمة عن البنية الإدارية والعسكرية والحياة الحضرية في الموصل.

أثار حكم ابن الأثير ونظرته التمجيدية تجاه سياسات وسيرة ملوك آل زنكي خلافات في وجهات نظر بعض الباحثين. رأى بعضهم أن هذا النهج فيه مبالغة في المدح(رضا زاده لنگرودي،١٣٩٥،ص٧٠٤)، بينما لم يعتبره آخرون متحيزاً، بل حكموا بأن حكم ابن الأثير على حكام آل زنكي هو حكم مقرون بالثناء وفي بعض الحالات نقد للضعف والإخفاقات (نژاد محمدي،پنجه ورودگري،١٣٩٨،ص٣٧٥،سالاري شادي ١٣٩٧،ص١٣٢)، كما أنه في روايته

لبعض الأحداث حاد عن مبدأ الحياد الذي اتبعه في "الكامل"، عمله الآخر(ابن الاثير ١٩٦٣،مقدمة طليمات ،ص١٧).

ويبدو أن "الباهر"، مثل "الكامل"، لا يتسم بالدقة والحياد التامين، فرغم أن رواياته عن الزنكيين أكثر تفصيلاً، إلا أنه من حيث الموضوعية التاريخية يقع في مستوى أدنى مقارنة بـ"الكامل". ومن الانتقادات الهامة أنه لم ينصف في حكمه على صلاح الدين، وأغرق في مدح الزنكيين؛ حتى إنه أحياناً يثني عليهم ثناءً يتغاضى به عن زلاتهم وأخطائهم أو يقلل من شأنها.

وموقفه تجاه صلاح الدين هو موقف نقدي واضح، فهو في بعض الحالات يشكك في أداء صلاح الدين ويعتبر تصرفاته نتيجة لضعف خلفاء نور الدين. يُرجح أن هذه النزعة نابعة أكثر من ارتباط ابن الأثير العائلي بجهاز الدولة الزنكية، رغم أنه لا شك أن ظهور الدولة الزنكية شكل حافزاً لكتابة "الباهر"، وقد سعى في هذا الكتاب إلى إبراز مكانة ودور هؤلاء الجهادي، وخاصة عماد الدين زنكي ونور الدين محمود.

ورغم احتمال وجود مبالغة في تمجيدهم، فلا ينبغي أن ننسى أنه كان ابن عصره، متأثراً بانتماءاته وبيئته السياسية. وفي الختام، يظل "الباهر" بفضل دقته في التفاصيل واحتوائه على معلومات قريبة من بلاط الزنكيين، مصدراً قيماً لفهم تلك الفترة.

بناء كتاب التاريخ الباهر وخصائصه المنهجية

يبدأ كتاب "التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية" بمقدمة، يليها النص الرئيسي الذي يفتتح بسيرة قسيم الدولة آق سنقر وينتهي بعهد الملك عز الدين مسعود الثاني. يصنف هذا الكتاب، ضمن تصنيفات الكتابة التاريخية، في زمرة التواريخ المحلية والأسرية (الدودمانية)، ورُتّبت الأحداث وفق الترتيب الزمني والتسلسل السنوي، وكذلك وفق فترة حكم كل ملك من ملوك الزنكيين وسيرته.

في بعض الأقسام، يخرج ابن الأثير عن الترتيب السنوي المجرد، ويقسم المواد المتعلقة بالزنكيين إلى وحدات موضوعية؛ فمثلاً، يبرز شجاعتهم في موضع، وعدلهم أو زهدهم أو هيبتهم في موضع آخر. بيد أنه، في حالات كثيرة، يحيل إلى كتاب "الكامل في التاريخ" ويصرح أنه، تجنباً للإطالة، أورد الشرح المفصل في ذلك الكتاب. وقد اختيرت عناوين الفصول بناءً على أبرز أحداث فترة كل سلطان من سلاطين الزنكيين.

يبدأ ابن الأثير تاريخ الزنكيين بجذور الأسرة، ثم يتناول قسيم الدولة آق سنقر وعلاقته بملكشاه، وبعدها يتتبع مسيرة صعود عماد الدين زنكي وخلفائه. وقد دوّن ابن الأثير الفترة (569–608 هـ) بشكل مختصر نسبياً، في حين خصص نحو ثلاثين صفحة من مجموع حوالي 240 صفحة من الكتاب للعلاقات بين الزنكيين والخلافة العباسية والسلاجقة. ويشرح بالتفصيل الخطوات التي اتخذها عماد الدين زنكي لتشكيل دولة موحدة تشمل الموصل والجزيرة وشمال

الشام، وينقل رواية موسعة عن حروبه مع الصليبيين وفتح الرها سنة 539هـ/1144م، ثم يتناول مقتله بعد ذلك بعامين (ابن الاثير ١٩٦٣،ص٣٤-٣٥) .

ومع ذلك، لم يُراعَ التوازن الحجمي في عرض فترة حكم ملوك الزنكيين، فقد جاء عهد نور الدين وسنوات 521-569هـ بتفصيل أكبر مقارنة بالفترات الأخرى (ابن الاثير ،١٩٦٣،ص٨٨-٩١).

بشكل عام، أبدى ابن الأثير اهتماماً خاصاً بعهد عماد الدين زنكي وسيف الدين غازي ونور الدين محمود، وبسيرهم وأعمالهم. أما منهج السرد والنموذج والبنية السيرية التي شكّلها ابن الأثير، فهي كالتالي: كلما شرع في سيرة أي أمير زنكي، يوضح أولاً كيفية وصوله إلى السلطة ودور الأمراء في ذلك، ثم يذكر أهم الأحداث السياسية والعسكرية في عصره، ومنها الحروب ضد الصليبيين، وفي النهاية يتناول مرضه ووفاته وصفاته الشخصية وأعماله العمرانية مثل بناء المساجد والمدارس. وهذا النموذج الثابت يتجلى في جميع أنحاء الكتاب.

يكشف فحص مصادر ابن الأثير أنه استخدم في كتابة "الباهر" منهجاً خاصاً ومصادر متنوعة، ويمكن تصنيفها على النحو التالي:

أولاً: المصادر الشفوية والمسموعات: تُعد روايات وذكريات أسرة ابن الأثير، بسبب معرفتهم بالأسرة الحاكمة وعلاقاتهم الحسنة مع حكومة آل زنكي، من المصادر الرئيسية للكتاب. يستخدم ابن الأثير في نقل الروايات غالباً تعابير شفوية ومصطلحات شائعة في تقليد الحديث، مثل: "قال"، "حدثني"، "بلغني"، "سمعت" وما شابه ذلك، لكنه عادة لا يذكر أسماء الرواة، إلا في حالة والده أثير الدين وأخيه مجد الدين.

ويشير ابن الأثير بوضوح إلى أن "الباهر" يعتمد في معظمه على ذكريات وروايات والده، وإن كان قد دوّن هذه الروايات والذكريات بعد وفاة والده اعتماداً على الذاكرة (ابن الاثير ١٩٦٣،ص3).

كما استفاد من ذكريات وروايات أخيه مجد الدين (ابن الاثير ،١٩٦٣،ص١٨٧-٢٠١،طليمات ،١٩٦٩،ص٨٤،ابو دهود،٢٠٠٩،ص71-73).

كان والد ابن الأثير، أبو الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم، رجلاً مطلعاً على المسائل السياسية، وجيهاً، ذا ثروة وأرض، وله علاقات محترمة مع ملوك آل زنكي. وكان أبناؤه أيضاً ذوي فضل وعلم في مختلف العلوم، وتولوا مناصب في الجهاز الإداري والديواني لحكومة آل زنكي.

كان مجد الدين، الابن الأكبر وأخو ابن الأثير الأكبر، رجلاً فاضلاً أديباً عالماً بالنحو والتفسير، ومن المقربين لنور الدين بن أرسلان شاه وعز الدين مسعود الزنكي. أما ضياء الدين،

الأخ الأصغر، فكان له مناصب إدارية وديوانية في جهاز آل زنكي (ابن خلكان ،١٩٧٧،ج٢،ص١٤١-١٤٢،طليمات،1969،ص13-15، شميساني،١٩٩٠،ص٣٣-٣٥).

كان مجد الدين كاتباً بارزاً، وخلّف كتباً مثل "البديع"، و"الباهر في الفروق"، و"الشافي"، و"جامع الأصول في أحاديث الرسول" (ياقوت الحموي ،١٣٨١،ج٢،ص٩٩٣-٩٩٤). أما ضياء الدين، الأخ الأصغر، فإلى جانب أعماله العلمية المتعددة، تولى مناصب مثل حاكمية جزيرة ابن عمر، ووزارة الملك أفضل في حكم دمشق، وأخيراً رئاسة ديوان الإنشاء في جهاز الأمير بدر الدين لؤلؤ أتابك الموصل (طليمات ،١٩٦٩،ص١٤-١٥،لساني فشاركي ،١٣٩٥،ص٧٠٧-٧٠٨).

إن تواجد هذه الأسرة في جهاز الدولة وعلاقتها بالملوك والرجال والشخصيات السياسية والإدارية والدينية، جعلها مطلعة على الأحداث والوقائع السياسية والاجتماعية، وهذه المعلومات أعانت ابن الأثير في كتابة "التاريخ الباهر" وقد استفاد منها.

ثانياً: المصادر المكتوبة: استخدم ابن الأثير كتباً مثل "تاريخ دمشق" لابن عساكر، و"أخبار حلب" لابن العديم، و"برق الشام" و"الفتح القسي في فتح القدسي" لعماد الدين الكاتب الأصفهاني، وكتاب "الاعتبار" لأسامة بن منقذ الشيزري، وفي بعض الحالات أحال إلى "الكامل في التاريخ" لنفسه (ابن الاثير ،١٩٦٣،ص٨٩،١٢٦،١٧٤).

ثالثاً: المشاهدات العيانية: يغطي "التاريخ الباهر" فترة زمنية تبلغ 130 عاماً. وقد شهد ابن الأثير بنفسه ربع هذه الفترة، مع أنه عاش وأدرك اثنين وخمسين عاماً من هذه الفترة(حلمي ١٣٩٤،ص١١٧).

وبناءً على ذلك، اعتمد ابن الأثير في القسم الأخير من الكتاب على مشاهداته العيانية. فالأحداث الثلاثون الأخيرة المذكورة في الكتاب تحظى بأهمية أكبر من حيث الدقة والتفاصيل، لأن المؤلف رواها معاصرة لها. تظهر الدراسة أن ابن الأثير عكس في "الباهر" حصيلة مشاهداته ومعرفته المباشرة بالأحداث. لقد كان شاهد عيان على بعض التحولات العمرانية في الموصل وما حولها، بل واستشهد ببعض الوثائق الرسمية. والدقة في تسجيل التفاصيل في الأحداث التي عاصرها ملحوظة؛ إذ يسجل أحياناً التاريخ الدقيق باليوم والشهر والسنة، بل ويقدم في نهاية كل عام خلاصة للوقائع.

الخصائص البلاغية والأدبية للتاريخ الباهر

عند المقارنة بين كتابي ابن الأثير التاريخيين، يمكن القول إن "الكامل في التاريخ" كُتب بأسلوب المؤرخ، إذ يهتم بالمادة التاريخية أكثر من اهتمامه بالبلاغة والأساليب الأدبية، وهو يعرض الحقائق بعبارات موجزة. بينما يمزج "الباهر" بين دوري المؤرخ والأديب، من خلال

استخدامه المكثف للنثر المسجَّع، لتعزيز الأوصاف المؤثرة للأحداث الهامة، مثل المعارك التي دارت بين الصليبيين وعماد الدين ونور الدين (ابن الاثير ،١٩٦٣،ص٥٩،٦١،٦٩،١٢٣).

إن توظيف الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والأشعار والأمثال بشكل متوازن في النص يخلق نثراً سلساً ومتصلاً يتابعه القارئ دون انقطاع. ومن خصائص هذا العمل الاهتمام الخاص بسيرة كل حاكم زنكي، بذكر نسبه وصفاته الأخلاقية ومدة حكمه وتقييم نهائي لشخصيته، بالإضافة إلى استخدام السجع والصناعات البديعية.

لقد جمع ابن الأثير في "الباهر" بين النثر التاريخي البسيط والعناصر الأدبية، غير أن هذه الصناعات لم تصل إلى حد طغيانها على الرواية التاريخية. إن الاستشهادات القرآنية والأحاديث والأبيات الشعرية التي أُدرجت بمهارة في النص، تدل على إلمامه بالثقافة الدينية والأدبية. كما يستخدم الأمثال العربية للاستنتاج أو تتبع المعنى.

وفي "التاريخ الباهر" وردت محسنات لفظية، وأشعار لشعراء مختلفين مثل محمد بن نصر القيسراني، وسعد بن محمد التميمي المعروف بـ"حيص بيص"، وأحمد بن منير الطرابلسي، وأبي تمام (ابن الاثير ،1963،ص41،56،60،68، بدوي ،1979، ج3،ص72 وما بعدها ، باشا ،1989،ص73).

كما يستخدم ابن الأثير الأمثال في مواضع من قبيل السخرية من الصليبيين وهزائمهم على أيدي المسلمين، ومثال ذلك في سنة 565 هجرية، أثناء حصار الصليبيين لدمياط بهدف فتح مصر، حيث يسخر منهم قائلاً: "هذا موضع المثل: طارت النعامة بلا قرن ورجعت بلا أذن" (ابن الاثير ١٩٦٣،ص،١٤٤،١٥٤).

الخاتمة

يُعد "التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية" لعز الدين ابن الأثير الجزري من أهم مصادر الكتابة التاريخية المحلية والأسرية في القرن السادس الهجري. فهذا الكتاب لا يقدم فقط أحوال وسيرة ملوك آل زنكي والحياة السياسية والاجتماعية في الموصل، بل يُعرف أيضاً كمصدر رئيسي لفهم الدولة الزنكية، ويعكس بصدق جهادهم ضد الصليبيين. استخدم ابن الأثير مصادر متعددة وتجاربه الشخصية وروايات المعاصرين، ليروي الحروب والعلاقات السياسية والأوضاع الاقتصادية في عصر الأتابكة، ويقدم صورة شاملة للحياة السياسية والاجتماعية والثقافية في الموصل خلال حكم آل زنكي. وهو من خلال تأكيده على الجهاد والأنشطة العسكرية لآل زنكي، ولا سيما في المعارك الصليبية الأولى والثانية، يصور تأثير هذه المعارك على تاريخ الإسلام

بشكل جيد. ويعكس هذا النهج نظرة ابن الأثير العميقة لمفاهيم الجهاد ووحدة المسلمين في مواجهة التهديدات الخارجية.

ومن السمات البارزة لهذا العمل، المنهج التحليلي والنقدي لابن الأثير في اختيار الروايات وترتيبها. فهو في المقدمة يوضح هدفه من تأليف الكتاب وهو تقديم نموذج أخلاقي سياسي للملك عز الدين مسعود الثاني، مما يدل على جهد واضح لإبراز مآثر الملوك السابقين وتقديم نموذج للقادة المستقبليين. وهكذا، فإن "التاريخ الباهر" ليس مجرد سرد تاريخي، بل هو عمل تعليمي وإلهامي ذو وظيفة أخلاقية وسياسية. في إطار الخلافتين العباسية والفاطمية اللتين تحولتا إلى قوى منسية للسلطة، بينما كانت السلطة الحقيقية بيد الدولة السلجوقية ثم الدول المحلية مثل أتابكة الموصل، لعب ظهور عماد الدين زنكي وأبنائه، وخاصة نور الدين محمود، دوراً رئيسياً في التصدي للتهديدات الصليبية واستمرار وحدة المسلمين. يقدم ابن الأثير، بالإحالة إلى مصادر متعددة وتجاربه الخاصة، صورة شاملة لهذا التاريخ، ويشرح دور هذه الأحداث في تاريخ الإسلام، ولا سيما من منظور الجهاد والحملات العسكرية. لذلك، يُعد "التاريخ الباهر" مصدراً أساسياً لدراسة وفهم دولة أتابكة الموصل في القرن السادس الهجري.

قائمة المصادر والمراجع

1. الأصبهاني، عماد الدين الكاتب، برق الشامي، تحقيق فالح حسين، عمان، مؤسسة عبد الحميد شومان، 1987م.
2. ابن الأثير، عز الدين علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم، الكامل في التاريخ، تحقيق ابن أبي الفداء عبد الله القاضي، بيروت، دار الكتب العلمية، 1407هـ/1989م.
3. ابن الأثير الجزري، علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني، التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية (بالموصل)، تحقيق عبد القادر أحمد طليمات، دار الكتب الحديثة بالقاهرة ومكتبة المثنى ببغداد، 1382هـ/1963م.
4. ابن الأثير، عز الدين علي، تاريخ كامل: تاريخ بزرگ اسلام و ايران (ترجمه)، ترجمة أبو القاسم حالت، مجلد 1، طهران، انتشارات علمى، 1371هـ.ش.
5. ابن خلكان، شمس الدين أحمد بن محمد، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، بيروت، دار صادر، 1397هـ/1977م.
6. ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله، تاريخ دمشق، تحقيق عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1415هـ/1995م.
7. ابن العديم، زبدة الحلب من تاريخ حلب، تحقيق سامي الدهان، دمشق 1951–1968م.

8. ابن قلانسي، حمزة بن أسد بن علي بن محمد، تاريخ دمشق، تحقيق سهيل زكار، دمشق، دار حسان للطباعة والنشر، 1403هـ/1983م.
9. ابن قلانسي، ذيل تاريخ دمشق، تحقيق حمد الجاسر، بيروت، دار الثقافة، 1962م.
10. أبو دهود، طارق محمود، ابن الأثير ودوره في الكتابة التاريخية، عمان، دار فضاءات للنشر والتوزيع، 2009م.
11. باشا، عمر موسى، الأدب في بلاد الشام: عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك، بيروت، دار الفكر المعاصر، ودمشق، دار الفكر، 1409هـ/1989م.
12. بدوي، أحمد أحمد، الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، مجلد 3، القاهرة، دار النهضة مصر، 1979م.
13. حلمي، أحمد، "التاريخ نگارى اسلامى از قرن ششم تا هفتم هجرى" (التأريخ الإسلامي من القرن السادس إلى السابع الهجري)، ضمن: تاريخ نگارى در اسلام (مجموعه مقالات)، ترجمة وتحرير يعقوب آژند، طهران، انتشارات گستره، 1394هـ.ش.
14. رضازاده لنگرودي، رضا، "ابن الأثير"، دائرة المعارف بزرگ اسلامى، مجلد 2، تحت إشراف كاظم موسوي بجنوردي، طهران، 1395هـ.ش.
15. سالاري شادي، علي، تاريخ نگارى و تاريخ نگرى ابن أثير، طهران، پژوهشگاه علوم انسانى و مطالعات فرهنگى، 1397هـ.ش.
16. شميساني، حسن، عز الدين ابن الأثير الجزري، بيروت، دار الكتب العلمية، 1411هـ/1990م.
17. طليمات، عبد القادر أحمد، ابن الأثير الجزري مؤرخاً، فرع مصر، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، 1969م.
18. لساني فشاركي، محمد علي، "ابن الأثير"، دائرة المعارف بزرگ اسلامى، مجلد 2، تحت إشراف كاظم موسوي بجنوردي، طهران، 1395هـ.ش.
19. نژاد محمدي، مريم، معصوم علي پنجه، قنبر علي رودگر، "سيماى زنگيان در التاريخ الباهر ابن أثير: جانبدارى يا بى‌طرفى" (صورة الزنكيين في التاريخ الباهر لابن الأثير: تحيز أم حياد)، پژوهش نامه تاريخ تمدن اسلامى، السنة الثانية والخمسون، العدد الثاني، خريف وشتاء 1398هـ.ش.
20. ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ترجمة وتحرير عبد المحمد آيتي، مجلد 2، طهران، انتشارات سروش، 1381هـ.ش.
21. Humphreys, R. S. (1991). Islamic History: A Framework for Inquiry. Princeton: Princeton University Press.